الفصل الثالث والثلاثين

ليس بالأوراق والبراعم بل بالثمار

قلعة برنشتاين Bernstein؛ قصر ضخم فخم شيِّد على مرتفعٍ صخريٍّ على ذروة الهضاب المشرفة على نهر الدانوب، على بُعد ستين ميلاً غرب ڤيينا، في منطقة تُعرف باسم ڤاخاو Wachau. بُنيت القلعة على الطراز الروماني المتأخر، فكان لها فناء علوي يُفضي إلى أبراجٍ خفيضة وسقف هرمي. حماية هذا المقلع توفرت من خلال جدار مُحْكَم تتخلّله أبراج متساوية البُعد، ويمتدّ حتى أسفل الهضبة وصولاً إلىٰ ضفة النهر حيث يَحَفُّ بقريةٍ صغيرة. وقع اختيار ليوبولد على هذا المكان الذي وجد فيه السجن المناسب لريتشارد لبعده القاصي ولما أبداه له سيّد القلعة المدعو هادمار الثاني Hadimar من وفاء. كان هذا الأخير يحمل لقب Küeringer أَو المحارب الشجاع، ولا شك في أن صفتي الشجاعة والمبادرة كانتا ضروريتين للبارونات في تلك الحقبة من الزمن التي شهدتها النمسا. جسّدت ممتلكات ليوبولد خط الدفاع الأوّل للإمبراطورية الرومانية المقدَّسة في مواجهة الخيّالة الشرسين القادمين من الشرق، من هنغاريا (المجر).

وُضِع ريتشارد، في هذه القلعة المنيعة، تحت المراقبة المشدّدة. كان الحراس يحيطون به بسيوفهم المسلولة في مقصورته الواسعة، ولكنه باستثناء

هذا الإخلال، عومل معاملة الملوك. سُمِح له باستقبال الزوّار والسيدات للترفيه عنه، وزوّد بكل ما لذّ وطاب وبكميات وافرة من النبيذ الأبيض الذي اشتهرت به منطقة Wachau حتى في تلك الفترة. ومع أنّ مؤيديه اشتكوا لاحقاً من سوء المعاملة التي لحقت به، إلاّ أنه لم يصفَّد يوماً ولم يعذَّب. تقول الأسطورة إنّ الملك أقام علاقة صحبة وودّ مع حرّاسه، فلم يفقد روح النكتة، وكان يحاول أن يرفّه عن نفسه بإشراكهم في مختلف ألعاب القوى.

بعد حقبة من الزمن، وفيما كان قَصُّ حكايات الأطفال عن ريتشارد جارياً، افتقر الكتّاب الرومانسيون إلىٰ دعابات ومباريات للقوى يكتنفها القدر الكافي من العنف والدرامية؛ ولذلك اتخذوا من الحقائق العارية لفترة سجنه حبكة لرواية هذه المراحل المذهلة. فتحوّل ليوبولد، دوق النمسا، إلىٰ الوغد الشرير في القصة فيما أصبح تابعوه وحرّاسه أدواتٍ للصراع. وتصف إحدى الروايات مبارزة pluck-buffet (اضربني وأضربك) جرت بين ريتشارد وابن الدوق الشرير. تعود أصول تلك اللعبة البربرية التي يتبارز فيها الديَكةُ، إلى زمن الإغريق، وترتبط ارتباطاً حزيناً بالسخرية التي تعرّض لها المسيح عقب أَسْره من قبل الجنود الرومان فقد عصبوا عينيه و«ضربوه» وتهكموا به بقولهم: «أظهر لنا نبوءتك أيها المسيح. من ذا الذي ضربك؟».

هنا، اتخذت «اللعبة» منحنى جرمانياً مميزاً فقد كان على أحد الرجال الوقوف جامداً معصوب العينين فيما يوجّه له الآخر ضربة على رأسه، فيبدي بالتالي مقدار شجاعته وصموده. فإذا تمكّنت الضحية من تحمّل هذه الضربة العنيفة والبقاء واقفةً على قدميها، يعود إليها أمر تسديد الضربة الثانية. كان ابن الدوق ضخم البنية صنديداً على غرار ريتشارد، وعاد تسديد الضربة الأولى إليه لكونه يمتلك حق الحراسة على الملك. ترنّح ريتشارد من زخم الضربة وتمايل أكثر مما كانت كرامته تسمح به. وشعر بأنّ «ضعفه» هذا سببه سوء التغذية ولذلك طلب الإذن بتأجيل دوره في تسديد ضربته إلىٰ اليوم التالي كي يتسنّى له

تناول وجبة طعام وفيرة. أعطاه غريمه مطلبه هذا فقد كان شاباً طيباً وغبياً.

بعد تناول وجبة وافرة من اللحم والنبيذ، أمضى ريتشارد الليل في تشميع قبضته حتى أصبحت في الصباح التالي كمثل الفولاذ. وعندما حان دور الملك، سدّد إلىٰ غريمه ضربة مزّقت فك ابن الدوق وسرعان ما توفي الشاب بعد فترة. ولم يكن ريتشارد ليتوقع أن تنهمر عليه العطايا بعد حدثٍ كهذا.

رواية أجمل وأطول بعد هي التي تحكي قصة وقوع ابنة الدوق الجميلة في حب الملك الوسيم بحيث خالفت قوانين القلعة، وصارت ترسل له خلسةً مختلف أنواع الأطعمة والحلويات، وذهبت إلىٰ حدّ إلباسه ملابس الجنود وإدخاله في السرّ إلىٰ غرفتها ليلاً (تتجاهل هذه الرواية تحديداً ميول ريتشارد ونزعاته). وتصل رواية القصة إلى افتضاح أمر اللقاءات الغرامية في نهاية المطاف. فجرّ الأسير جرّاً لمحاكمته. مارس الدوق الشرير بالطبع ضغوطاً لإصدار حكم الإعدام الفوري، إلاّ أن رئيس القضاة خطرت في باله فكرة أفضل وأكثر تلاؤماً مع محاكم أوروبا. هذا هو إذن ريتشارد قلب الأسد! لماذا لا نحرم الأسد الضخم في زريبة الدوق من الطعام ونطلقه بعد ذلك في زنزانة السجين؟ سيتمكنون عندئذٍ من معرفة أيهما له قلب الأسد فعلاً.

ارتعدت فرائص ابنة الدوق لدى سماعها هذا المخطط الشيطاني وسارعت إلىٰ زنزانة الملك تمد له يد العون لتسهيل فراره. رفض ريتشارد النبيل عرضها بالطبع واكتفى بطلب أربعين من وشاحاتها وكفوفها الحريرية المعطّرة المفضّلة لديها. في اليوم المحدّد، فتح باب الزنزانة على مصراعيه وتأهّب الملك الذي كان قد غلّف ذراعيه تغليفاً محكماً بكفوف حبيبته. عندما انقضّ الأسد عليه، خطا الملك خطوة جانبية بكل خفة ورشاقة في آخِر لحظة ولكم الحيوان في ذقنه بكل قواه فطرحه أرضاً. تقلّب ملك الغاب وزأر زأرةَ ألمٍ ومهانة. ما أن رأى ريتشارد فم الحيوان فاغراً حتى زحف إلىٰ الأمام وأقحم ذراعه الموشّح في غور حلقه وانتزع قلب الأسد! استناداً للأسطورة، توقف

ريتشارد لوهلة لحمد الله ثم مشى بخطى واسعة إلىٰ طاولة الدوق الشرير ورفع قلب الأسد وعصره لاستخراج الدم كله منه ثم غمسه في الملح وأكله!

صحيح أنّ هذه الرواية هي أفضل ما حكي عن أسد ريتشارد ولكنها ليست الأكثر شهرة. إذ تحوز على هذا الامتياز والشرف قصة تروي كيفية العثور على موقع سجن ريتشارد. تقول الرواية إنّ الملكة بيرنغاريا عادت، في نهاية المطاف، إلىٰ إنكلترا وخلت إلىٰ نفسها في حصنها الملكي في أكسفوردشير منتظرةً انتظار اليائس أخباراً تنبىء بحدوث معجزة. كانت قد قدمت إلىٰ هذا المكان برفقة مغني ريتشارد الذي كان يحتلّ مكانةً خاصة جداً في قلب ريتشارد حسب ما تناقلته الروايات. لطالما أمضى ريتشارد وبلونديل ساعات عديدة سوية في طفولتهما، يصطادان معاً ويطفران معاً، وكان بلونديل يصدح بأغنيات الحب والوفاء للملك الذي كان يكافىء شاعره بإغداق الهدايا عليه. لقد كان يوليان لمشاعر الود التي تجمعهما وللحب بشكل عام أهمية كبيرة حتى أنهما نظما عدداً من أغنيات الحب سوية. والمفضلة لديهما كانت أغنية تحمل اسم «القلب الشغوف».

مرّت عدة أشهر لم يرد خلالها أي خبر من الملك، فازدادت بيرنغاريا قلقاً حتى بات بلونديل عاجزاً عن مؤاساتها. وأخيراً أعلن بأنّ «البكاء لم يعد ينفع فالعمل خير من العويل». وأسرّ لها بخطة تهدف إلىٰ البحث عن الملك السجين في مكان ما في الإمبراطورية الجرمانية المترامية الأطراف، وطلب منها التكتّم على الخطة وإبقائها سرّاً بينهما.

وأعلن قائلاً: «لا بد أن ينتصر الفن حيث أخفقت القوة والدبلوماسية الحاذقة»، وانطلق كما الأبطال نحو القارة يتنقل بين القصور الملكية لأسابيع وأسابيع، يداعب أوتار عوده ويصدح بالأغنيات التي ألفها بصحبة الملك:

القلب الشغوف يجد سكينته في العذوبة
وأتوق لتذوق قبلات الحب الحقيقي
فمصيري الموت ولا شك إن لم أحصل على قبلة قريباً

وعندما ملّ من تريد هذه الأغنية، اختار واحدةً من أغانيه العديدة المشهورة:

أعشق وعشقي كالجمرة

تدفعني للغناء

أتصرف كمن أُخِذ على حين غرة

وعجز عن المقاومة

ومع ذلك امتلك ما يجعلني أفتخر وأتباهى

ففي الزمان البعيد تعلمت كيف أحب بوفاء

وفي نهاية المطاف، وصل إلىٰ ضفاف نهر الدانوب، وتنقّل بين قصورها يشدو فيها بأغنياته:

قبلة في السرّ هي جرح في قلب الحب

مميتة ولكن خفية

واحسرتاه، لماذا نتباهى إلىٰ هذا الحد بهذا الداء!

مع أن الشفاء منه ممكن

لو لامست فمي من جديد

أخيراً، وصل إلىٰ أسوار برنشتاين المنيعة. فوقف تحتها، وصدح بملء صوته في الهواء العليل:

ما من امرأة تستطيع أن تكون معشوقة روحي وأحاسيسي

إن اخترت أن أمنح الآخرين عطفي واستحساني

أفضّل أن أعيش وحيداً منبوذاً مكروهاً

على أن أوزّع روح حياتي وعواطفي

وفجأة انطلق من شق نافذة في أعلى البرج صوت الملك القوي المدوّي الجهير يشدو بالجزء الثاني من الأغنية ذاتها:

رؤيتك يا عاشقي الكريم تضرم فيّ مشاعر الحب
ولكن يا حسرتاه، قلبك لم يطرق العشق بابه بعد
ولذلك عليّ أن أتحمّل ألمي وحزني
بما أنّ كلّ منافسي في حالةٍ كحالتي.

وما أن ختم الملك الأسير أغنيته حتى شهق شهقةً كان يطلقها في رحلات الصيد عندما كان الرفيقان المرحان يعدوان سوياً في غابة أكيتان. وهنا، يقول المؤرخون أن بلونديل شعر «بفرح غامر» لدى سماعه صوت صديقه ومليكه.

ماذا حدث بعد الانتهاء من شدْو هذه الرُباعية؟ تختلف تتمةُ القصة باختلاف الروايات عبر العصور. ففي إحدى الروايات، دُعي بلونديل إلىٰ داخل قصر برنشتاين حيث أمضى عدة أسابيع للترفيه عن الحرس إلىٰ أن تمكّن من الرحيل. ولكن الشكوك ساورت الحرس، في رواية أخرى، لدى سماعهم هذا الغناء الودّي وهتافات الصيد الصاخبة فأطلقوا الكلاب المتوحشة لمطاردة المغنّي. في كل الأحوال، بلغنا أن موقع أسر ريتشارد قد اكتشف بفضل يد العون التي مدّها بلونديل. وندين لهذا المغني بالخبر اليقين عن موقع سجن ريتشارد وإعلام إنكلترا به.

II

الاحتجاز المُرفَّه

بحلول ربيع سنة 1193م، كان خبر ما آل إليه ريتشارد قد انتشر في بلاطات ملوك أوروبا. إنّ إمبراطوراً يحتفظ بملك رهينة لديه! يا له من خبر هام

وسبب لانفجار أزمة في القارة الأوروبية. تكثفت الجهود الدبلوماسية التي اضطلع فيها البابا سلستين الثالث بدور المُطلِق لعددٍ من المبادرات ـ كما بات موضعاً للانتقادات التي استهدفته بسبب بقائه ساكناً خاملاً بلا حراك.

أُذِن لريتشارد بكتابة الرسائل وبعثها إلىٰ إنكلترا، فقد بدا في ذلك خير يخدم مصلحة الإمبراطور. في السادس والعشرين من آذار/ مارس، كتب ريتشارد إلىٰ أُسقف كنتربري، رئيس أكبر أبرشيات إنكلترا ثراء، يصف أسره بأنه مقبول، ولكنه يبلغه بخبر صاعق مفاده أنّ الإمبراطور يطالب بفدية مقدارها مائة ألف مارك فضي. فدية تعادل ثروة باهظة جديرة بالفعل أن تطلق عليها تسمية «فدية ملكية». كانت هذه الفدية تساوي نصف خزينة المملكة. توسّل ريتشارد بأن تقرضه الكنيسة ما تملكه من مال، وأن تساعد في جمع ما يتبقى من المبلغ. لقد تعدّى ابتزاز هنري حدود الاستبداد والغطرسة. جلّ ما كان يسعى إليه هو إفلاس إنكلترا وشلّها في أوروبا فيما كان يحوّل ثروات القارة وسطوتها إلى ألمانيا.

في هذه المرحلة الانتقالية، وفيما كانت إنكلترا تحاول استيعاب الأزمة، دوّن قلم إليانور أوف أكيتان أهم المراسلات. كانت تقيم في لندن في محاولة منها لكبح تعدّيات جون على العائلة. وفي ثلاث رسائل بعثتها إلىٰ البابا، قدّمت إليانور نفسها بتشامخ على أنها ملكة الإنكليز (متجاهلة اسم بيرنغاريا التافه) ودوقة النورماندي وكونتة أنجو ـ ثم وصفت نفسها بكل تواضع بأنها أم حزينة بائسة وقع ولدها ضحية مؤامرة خسيسة حُبِكت ضدّ الله وإنكلترا. وفي رسالتها الموجَّهة إلىٰ سلستين الثالث كتبت: إن الملك «في ضيق وعسْر والأخطار تحدق به من كل جانب. انظر إلىٰ حالته وخراب إنكلترا، وكيد الزمان، وجبروت الشرير الذي يوجّه الأسلحة مدفوعاً بجموح أطماعه إلىٰ الملك الذي قبض عليه (هنري السادس) فيما كان يؤدي حجّه المقدَّس في رعاية الله، وتحت وصاية الكنيسة الرومانية». وقد أظهرت من خلال تعبيرها

عن «جموح أطماعه» وفي ذكرها اللاحق «للأطماع التي لا تنتهي» بأنّها على علم بالصفقة التي باع بموجبها ليوبولد الملك ريتشارد إلىٰ هنري السادس. وفي كلامها تلميحات إلىٰ أنّ هنري اشترى ريتشارد لتغيير منحى الصفقة بتحويلها إلىٰ عملية إعادة السجين الملكي مقابل مبلغ باهظ.

دافعت إليانور عن قضيتها تارةً بحماسٍ وتهكم، وطوراً بغضب وإطلاق تهديدات مقنّعة. واشتكت من تقاعس البابا في إرسال ولو وفد بابوي واحد إلىٰ هنري للاحتجاج على أفعاله، لا بل إنه لم يبعث بشمّاس مساعد أَو حتى قندلفت واحد. وتساءلت، على غرار أساقفة النورماندي، عمّا حال دون استلال سيف بطرس في مواجهة الإمبراطور الوقح والمتمرّد وكلبه المدلّل ملك فرنسا إذ إن سيف الروح هو سيف الله (مقتبسةً كلامَ بولس إلى أهل أفسس)، وأضافت في رسالتها: «تآمر ملوك الأرض وأمراؤها ضدّ ولدي، وهو من نصَّبه الله في موقعه هذا. فأحدهم يكبّله في سلاسل من حديد، فيما ينهب آخر أراضيه. أحدهم يحتجزه فيما الآخر يسلبه. وفي حين تجري هذه الأعمال، يبقى سيف القديس بطرس في غمده». ثم شجبت بقوة الأقوال الخاوية التي تفوّه بها كاردينالاته فقالت: «للأسف، أعلم الآن أن وعود كاردينالاتك كانت مجرد كلمات عقيمة تفوّهوا بها. فلا تُعرف الأشجار من أوراقها ولا من أزهارها بل من ثمارها. وبذلك اطلعنا على ما يضمره كاردينالاتك».

وبنبرة التهديد، لامت الفاتيكان على تقاعسه عن مواجهة طيف التفرقة المخيف في وسط مجتمع الدول الكاثوليكية: «لحظة مصيرية باتت وشيكة فقد قاربنا على رؤية لباس المسيح يؤجر مجدداً، وروابط القديس بطرس تكسر، والوحدة الكاثوليكية تتلاشى». ويبدو أنّ حالة الشقاق هذه المرة تتناقض عما كان عليه الوضع منذ عشرين سنة خلت مع توماس بيكيت. ففي تلك الفترة، اعتقل الملك أمير الكنيسة وأبقاه رهينةً لديه. أما اليوم، فقد أصبح الملك هو الرهينة بسبب تقاعس الكنيسة وخمولها. ولكن عواقب الانحلال تتماثل في الحالتين، برأيها.

وقبل حلول عيد الفصح، أُرسل عدة أساقفة إنكليز، بمن فيهم وليام أوف إيلي المعروف ومستشاره المقرّب هوبيرت والتر الذي كان أسقف سالزبوري، إلىٰ أوروبا للبحث عن ريتشارد وتقييم وضعه. اقتفى الأساقفة أثره حتى وصلوا إلىٰ سوابيا Swabia، فبعد أن باع ليوبولد ملك النمسا ريتشارد إلىٰ الإمبراطور هنري كرقيق محتمل، نقل الملك الإنكليزي من برنشتاين إلىٰ قلعة ترايفلز Trifels الكئيبة على الحدود السوابية. كانت هذه القلعة معروفة شيِّدت منذ مئات السنين ويُروى أن على المرء توديع أهله قبل التوغل في أروقتها المظلمة فقد يكون آخر عمل يقوم به قبل موته.

وجد الأساقفة ريتشارد بمعنويات مرتفعة، ولم يبن عليه أثر الإهانة والانكسار من جراء سجنه لا بل النشاط والهمة. أمطر مواطنيه بأسئلة عن إنكلترا وحالة المملكة بشكل عام. واستمع بآذانٍ واعية إلىٰ رواياتهم عن خدائع شقيقه جون. وما أن عرف بتوفيقه في حِيَلِهِ هذه حتى أجاب متهكماً: «لا يمكن لشقيقي جون أن يخضع البلاد إن تمكن رجل واحد من التصدي لمحاولاته».

انتقلت المجموعة تحت الحراسة من تريفلز إلىٰ أوكسينفورت Ochsenfurt. وفي نهاية المطاف، إلىٰ سباير Speyer على ضفة الراين اليسرى. كانت سباير مقرّ أسقفية بافاريا واشتهرت بكاتدرائيتها الرائعة المبنية بالحجر الرملي حيث كان الإمبراطور يقيم بلاطه في عيد الفصح. وللمفارقة الساخرة، تعدّ سباير واحدة من ست بلدات تقع على ضفاف الراين شهدت مجازر ذهب ضحيتها يهود على أيدي عصابات مسيحية منذ مائة سنة، قبل أن يطلق الصليبيون حملتهم الأولى «المجيدة» نحو الديار المقدّسة.

وفي سباير، كان سان برنارد أوف كليرفو قد دعا بحرارة لإطلاق الحملة الصليبية الثانية منذ خمسين سنة تقريباً، ووعد بأن تغمر الرعاية الإلهية كل من يذهب إلىٰ الأرض المقدَّسة والخلاص الأبدي لكل من يلاقي حتفه. وبذلك كان هنري يزيد من اللعنات المنزلة على هذا المكان في سجلاّت الصليبيين.

ومع ذلك، بدا ريتشارد غافلاً عن كل هذه الأمور. لقد كان يتحرك كأنما تحرّر من الزنزانات المعتمة الرطبة، ولذلك شعر بأن معنوياته ترتفع. إن عجلة المحادثات الدبلوماسية تدور وتعود عليه بالفائدة وسيحصل قريباً على فرصة مواجهة من يتهمه. أعجب رفاقه بصحبته الرائعة التي خفّفت عنهم مَشاقّ ترحالهم.

وكتب المؤرخ روجيه أوف هوفدن عنه: «لقد حاز على إعجاب الجميع بتصرفاته اللبقة والجسورة واللائقة».

وأخيراً، وقف بين يدي هنري السادس في أحد السَّعف. ومع أن الدافع الرئيسي الذي حدا الإمبراطور إلىٰ اقتراف هذه الإهانة كان سياسياً ومالياً، فقد كان يكنّ لريتشارد كرهاً حقيقياً ويصبّ عليه غضباً تزكيه المعلومات الخاطئة المقصودة التي زوّده بها فيليب أغسطس المتعصّب. وعندما وقف الأسير يحملق به، انهال عليه الإمبراطور بالاتهامات. لقد كانت خيانة ريتشارد له سبباً كي يفقد صقلية بالإضافة إلىٰ مجموعة كبرى من الجنود ومبلغ كبير من المال معهم. لقد قصد ريتشارد أن يسيء معاملة أحد أقربائه، أي إمبراطور قبرص، بدافع من الكُره حتى أنه يقال بأن ريتشارد قيّد إسحق كومنينوس ذاك بسلاسل من فضة في مكان ما في فلسطين. لقد اغتال ريتشارد ولي عهده، كونراد دو مونتفرّا، وأرسل بضعة رجال ينتمون إلىٰ فرقة الحشّاشين الشرقيين لقتل فيليب أغسطس الفرنسي. وأخيراً لقد أبدى مشاعر الاحتقار والازدراء حين سمح بأن يتمرغ علم النمسا المقدَّس في الغبار والترابَ في عكّا.

بدت مكائد فيليب واضحةً جليةً في هذه الاتهامات الغاضبة، إلاَّ أن ريتشارد دافع عن نفسه بأسلوب ودّي متسامح. لقد زُوِّد الإمبراطور بمعلومات خاطئة. وفنّد كل تهمة على حدة أمام جمهور البارونات الجرمانيين المشككين وتكلم «بوضوح وبقوة من له قدرة إقناع» حسب أقوال أحد المراقبين. لم يكن في مقدوره منع ما حصل في صقلية وقبرص فقد تصرف كما يتصرف أي قائد

عظيم للحملات الصليبية باستخدام هاتين الجزيرتين محطةً لحملته. كان بإمكانه إنكار التهم برمتها التي تجعل له يداً أَو مصلحة في أي حادث اغتيال حصل في الماضي أَو يحصل في الزمن الحاضر، ووعد بتقديم دلائل جديدة على براءته من هذه التهم. كما ذكر أنه لا ضلع له في الإهانة التي ألحقها جنوده بالعلم النمساوي. صحيح أن هذا الحادث أثار اشمئزازه وأحرجه وإن ليس بقدر ما شعر به عندما غرق فريدريك باربا روسا، أحد مواطني هنري. ولو لم يغرق الإمبراطور الألماني العظيم في تركيا، لكانت الحملة الصليبية الثالثة حقّقت دون شك فوزاً ساحقاً.

عقب هذا الأداء المتفوّق، انفرجت أزمة ريتشارد الأوّل. فكل ما كان يكنّه هنري من عداء شخصي لريتشارد تلاشى تماماً. وتقبّل حجج الملك في دفاعه عن نفسه، وسرعان ما أصبحا صديقين! دعا هنري ريتشارد إلىٰ بلاطه كما يدعو الندّ ندّه. ثم تشارك الملكان في المآدب والاحتفالات التي أنشدت فيها الأغنيات والأشعار وعزفت فيها الموسيقى. وعندما انتقل بلاط الإمبراطور من سباير إلىٰ القصر الإمبراطوري في هاغناو Hagenau في الألزاس وهو المكان الذي خفظ فيه تاج شارلمان وصليبه، وصولجانه، وسيفه، انتقل ريتشارد معهم.

وفي غضون بضعة أسابيع، كتب رسالة إلىٰ إليانور (وجّه كلامه إليها باعتبارها ملكة إنكلترا) حيث أطال فيها وصف المعاملة الكريمة التي يوليه إياها الإمبراطور وحاشيته كلها. وبدا الحال كأن رقابة البلاط كانت تقف وراءه مباشرةً عند كتابته هذا المدح عن رجل يبتزه. لقد ربطت «أواصر الصداقة المتبادلة والمتينة» بينهما إلىٰ حدّ جعل ريتشارد يتخذ قرار «إطالة» إقامته بصحبة صديقه الجديد.

فهل رقّ قلب ريتشارد؟

في الجزء الثاني من الرسالة التي وجّهها إلىٰ إليانور، أضفى على ابتزاز

هنري صفة الهدية عوضاً عن الجريمة. ينوي الملك البقاء بصحبة هنري إلىٰ أن تُعْقد «صفقتهما» إذ قال إنه سيظل في مكانه «حتى ندفع له سبعين ألف مارك فضي». ويفترض أن تكون إليانور والقضاة أمثلة تُحتذى في جمع المبلغ الذي يطلبه الخاطف وإجبار الكنيسة على المساهمة بكل ما تمتلكه من ذهب وفضة. وكما لو أنّه ودّ مباركة الفعل المقيت، بَعَث الملك برسالته إلىٰ الملكة «مختومةً بالختم الذهبي لسيدنا وإمبراطورنا».

في شهر حزيران/ يونيو سنة 1193م، اتخذ هذا الإجراء شكل عقد بين ريتشارد وهنري. وتمحور القسم الأكبر من هذا العقد حول طريقة تسليم النقود الفضية والتأكّد من صحة زنتها على أيدي مصرفيي الإمبراطورية قبل السماح للملك بالرحيل. وتُقدَّم ضمانة عبارة عن حوالي ست وسبعين رهينة تساوي مبلغ خمسين ألف جنيه إضافي. ويكافأ ليوبولد، دوق النمسا، على دوره القيادي في هذه المؤامرة بحصوله على إليانور، ابنة شقيق ريتشارد وأميرة مقاطعة بريتانيا، التي ستُزوَّج لابن ليوبولد.

وبذلك يكون اختطاف الملك ريتشارد قد عاد على دوق النمسا بفائدة سخية على المدى القريب. صحيح أنّه وضع تحت حرم كنسي، وأن البابا منع إقامة أي قداس في أراضيه ولكنه تمكّن بفضل المال الذي حصل عليه من هنري وريتشارد، أن يوسّع حدود فيينا ويحصّن مدينة إينز Enus، وأسّس مدينتين جديدتين.

ولكن دارت دوائر معاصيه عليه في آخر المطاف. ففي سنة 1195م، ضربت النمسا أوبئة مختلفة من جفاف ومحاصيل منخفضة وأمراض. ويقال إن فيضان نهر الدانوب أودى بحياة عشرة آلاف شخص. وطالت المصائب الدوق نفسه فقد رفسه حصانه في رجله التي تورّمت بشكل مخيف واسودّ لونها، وعجز الأطباء عن مساعدته. لا مناص من بتر رجله ولكن أحداً لم يبدِ استعداده لإجراء عمليةٍ كهذه على ساق الرجل الملعون. ولذلك، يذكر المؤرخ أن

ليوبولد أمسك بفأس وقطع رجله بنفسه. ولم يمرّ وقت طويل حتى التهب جسده بالحمى. وعندئذٍ، أبدى لكهنته رغبته في التوبة.

كتب المؤرّخ في هذا الصدد أنّه «اعترف بتفاصيل الجريمة النكراء التي اقترفها كيداً بالملك ومناصريه. ونزولاً عند رغبة الأساقفة الذين قدموا إليه، سلّم الرهائن وما تبقى من المال اللازم لدفع فدية الملك، وأقسم أن يعيد ما قد تلقاه، وَوَعد أن يحترم حكم الكنيسة من الآن فصاعداً».

ولكن لم يتسنَّ له المجال كي يحقّق وعوده. وعلى الرغم من قرار الأساقفة بإلغاء حَرْمه الكنسي عندما رأوه يحتضر، فقد أسلم الروح مصارعاً آلامه. وبما أنه ما من أحد رضي أن يلمسه، فقد تركت جثته تفسد وتلتهمها الديدان.

III

ما دُفعت الفدية، وأنا قابع في الأغلال

إن إنجاز تعهّد كذلك الذي يقضي بجمع فدية ريتشارد يستلزم وقتاً طويلاً ـ هذا إذا افترضنا أنه من الممكن إنجازه في ظل الفوضى التي كانت سائدة في إنكلترا. وبالفعل، حين عاد أسقف ألي Ely إلىٰ إنكلترا لجمع الأموال، كان ردّ فعل الكنيسة الأوّل بارداً. وفي الأراضي الشاسعة التابعة لإنكلترا والواقعة تحت سيطرة شقيق الملك، كان جون قد ابتلع جزءًا أساسياً من الفدية لاستخدامها في نفقاته الخاصة. في هذه الأثناء، كان ريتشارد يتنقل في كل أنحاء الإمبراطورية الجرمانية خاضعاً لاحتجازه الرائع دون علم منه بهذه الصعوبات. في الخامس من تموز/ يوليو، كان البلاط مقيماً في وُرمز Worms التي جمع الإمبراطور فيها أمراء ألمانيا لإقرار ابتزازه. ومع مرور الأيام أصبح من الواضح أن هنري السادس كان يتلكأ بهدف انتزاع المزيد من التنازلات من الإنكليز.

في الوقت نفسه، كتب ريتشارد عدداً وافراً من الرسائل وبعثها إلىٰ مناطق مختلفة من أوروبا، يشتكي في معظمها إلىٰ مختلف البارونات من قلّة مساندتهم له. فهو، على سبيل المثال، يذكّر الكونت أوف أوفرني Auvergne، أحد أصدقائه القدامى، بحياتهما المشتركة وكيف أنّ ريتشارد قد قدّم الدعم لتابعه وأثراه، وكيف أنّ الكونت كان يثق فيه، في السابق، ثقة عمياء أو على حدّ تعبيره «ثقة شبيهة باعتماد الدجاجة على الديك». ولكن الكونت تخلّى عن سيده ما أن وقع في الأسر وسلبه أمواله.

وكتب في إحدى رسائله بلهجة التهديد: «من يبقى وفياً لريتشارد، تظلّله حماية القانون حتى النهاية. ولكن من يعطي الأولوية لشخصه فإنّ عاقبةً وخيمة بانتظاره».

واستسلم ريتشارد أخيراً للاكتئاب والحزن على نفسه. وفي إحدى هذه النوبات، كتب قصيدة بعنوان Ja Nus Hons Pris وجّهها للأصدقاء المزيّفين وقد ذاع صيت هذه القصيدة وتناقلتها العصور بوصفها إبداعه الشعري الخالد. تعبّر هذه القصيدة الغنائية عن كآبة الأسير فتقول:

ما زالت الشكوى سلوى الحزين

لديّ الكثير من الأصدقاء، والوعود غزيرة

ولكن الخزي لهم إذا لم تدفع فديتي في غضون شتاءين

وظللت حبيس أغلال الطاغية

اللوردات والنبلاء جميعهم يعلمون علم اليقين

في إنكلترا، ونورماندیا وغاسقونيا وبواتو

أنني لم أتجاهل يوماً نداء أكثر تابعي فقراً،

ولكن كل من يملك المال الذي يستطيع فك أغلالي انسحبوا.

أنا لا أتكلم بلهجة اللوم، ولا من أجل لغو لا فائدة منه،
ولكنني وحدي أحمل الأغلال وما من شفوق ولا رحيم.
يعلم جيداً من أصبحوا اليوم أغنياء وأقوياء
من عزّاب أنجو وتورين الشهوانيين
أنني بعيداً عنهم، أمتحن بأغلال العدو
لقد أحبوني كثيراً ولكنهم لم يحبوني طويلاً
لن ترى سهولهم أموالاً مدارة بعدالة
بينما أنا هنا طريح الخيانة.

لا شك أنّه كان في حالة مزرية غير منصفة ولكن كان من الممكن أن تؤول إلىٰ الأسوأ. فقد تلقّى، في خضم سوداويته، بياناً من إنريكو داندولو، دوج البندقية الموقّر، وعميد عائلة البندقية الشهيرة، ومؤسس إمبراطورية البندقية الاستعمارية، وشخصية رئيسية في الحملة الصليبية المقبلة حيث إنه سيستحوذ في القسطنطينية على الأحصنة الأربعة التي تزيّن اليوم واجهة كاتدرائية القديس مرقس. جاء في هذا البيان ما يلي:

«إلىٰ السيد الموقر، ريتشارد، ملك إنكلترا ودوق نورماندي وأكيتان وكونت أنجو، بفضل الله، من أنريكو داندولو، دوق البندقية ودالماسيا، وكرواتيا بفضل الله أيضاً. تمنياتنا لكم بالصحة، ولكم منا مشاعر الإخلاص والمودة. اعلموا أنه بلغنا من مصدر موثوق أن صلاح الدِّين، عدوّ الدين المسيحي، قد توفي».

خبر كان قد مرّت عليه أربعة أشهر.

ولعلّ ريتشارد قد تساءل حينها عما كان آل إليه مصير ملحمته الصليبية لو أنّ خصمه العظيم توفي قبل سبعة أشهر خلت.

IV

الشيطـان طليقـاً

في خريف سنة 1193م، خيّم جو غريب وسريالي على الجهود الرامية لتحرير ريتشارد من أسره التيوتوني. واستمرّت عمية الابتزاز التي عبقت برائحة المودة الزائفة، كما لو أن الأمر متعلّق بصفقة مصرفية دولية عادية بين تجار شرفاء.

كان صندوق المال المخصص لفدية الملك يمتلىء ببطء بالذهب والجواهر من إنكلترا وأكيتان وأنجو ونورماندي. ولجمع مبلغ الفدية، فرضت على كل فارس ضريبة تساوي عشرين شيلينغ وألزم كل مدنيّ بدفع ربع دخله، كما أجبرت كل كنيسة على التنازل عن أقداحها وكل ما له قيمة من ممتلكاتها.

وفيما كان المال يسلَّم إلىٰ السلطات، تقمّص ريتشارد شخصية الملك الغائب. فبعد الحصول على إذن معتقليه وتحت رقابتهم، صار يكتب أوامره وطلباته ويبعثها إلىٰ مملكته من مكانه القَصي. وتضمّنت هذه الأوامر تعليمات سياسية ظرفية تتعلّق بعدد من قضايا الدولة، بما فيها جهوده في تعيين صديقه القديم ومستشاره هيوبرت والتر، أسقفَ سالزبوري (من الأشخاص الأخيرين الذين زاروا ريتشارد في سجنه كما زار صلاح الدِّين في أورشليم)، رئيساً لأساقفة كنتربري. وكان من شأن هذا التعيين أن يسرّع جهود الكنيسة في جمع ما تبقى من الفدية. وعليه فإن ترقية الأسقف كانت من مصلحة هنري وريتشارد معاً.

كان تفاقم الجو السريالي مؤامرةً خطّط لها حلفاء هنري السادس، أي فيليب أغسطس والكونت جون، شقيق ريتشارد، بهدف اقتسام ممتلكات ريتشارد أثناء غيابه. وفيما كان هذا الأخير ينظم غنائياته الحزينة ويصدر تعليماته

القاسية، غزا فيليب أغسطس مقاطعة النورماندي وفرض سطوته على فاكسن، واستولى على مدن جيسور ودياب وايفرو الاستراتيجية. ثم زحف حتى بوّابات روان وأعلن لحاميتها: «لقد كافأني جون، إيرل مورتاين Mortaigne، على وفائي لإنكلترا ووهبني النورماندي وكل الأراضي الأخرى على هذا الجانب من البحر. لقد جئت لاستملاك هذه المدينة، عاصمة النورماندي. اسمحوا لي أن أدخل بسلام، وأكون لكم حاكماً لطيفاً وعادلاً!».

كان لا بد من قمع صرخات الاستهجان الصادرة من وراء الأسوار. وردّ رفقاء ريتشارد الأوفياء بصوت مرتفع: «انظروا، إن بوّابات المدينة مفتوحة على مصراعيها. ادخلوا إن شئتم. فلن يقف أحد في وجهكم». قد يتصف فيليب بصفات كثيرة إلاّ أنه لم يكن غبياً أبداً. لذلك رفض دخول المدينة وسحب قواته متوعداً بالعودة حاملاً «قضيباً من حديد».

سال لعاب ريتشارد وتشوّق للعودة إلى ساحة المعركة لدى سماعه أخبار عمليات السطو هذه. فلا بدّ أنّه قهقه عندما عرف بزواج فيليب أغسطس الثاني في الفترة ذاتها تقريباً. فسعياً وراء مجد أعظم لفرنسا وليس باسم الحب، تزوّج الملك الفرنسي Ingelburg، شقيقة كانيوت ملك الدانمرك أملاً في الحؤول دون غزو الفايكنغ لإنكلترا من جديد. ولا بد أنها كانت غانية بلهاء؛ فقد أطلق فيليب أغسطس ساقيه للريح فراراً من مقصورة الزفاف ليلة العرس مرعوباً مفزوعاً ولم يعد إليها ثانية. وطلّق على الفور السيدة الوقحة.

في هذه الأثناء، تكشَّف جزء غريب من قضية قديمة في شتاء سنة 1193م. فعندما كان ريتشارد يدفع التهم الموجّهة إليه معلناً براءته منها، وعد بأن يقدّم دليلاً جديداً يدعم به براءته. ولذلك أرسل مبعوثين إلى رشيد الدين سِنان، زعيم الحشاشين وحده من بين كل الناس، وطلب من الرجل العجوز أن يكتب لمعتقله الأوّل، ليوبولد النمساوي، عن وقائع اغتيال كونراد أوف مونتفرّا. وصل ردّ المخطّط الأكبر للاغتيالات في شهر أيلول/ سبتمبر: «من شيخ الجبل

إلىٰ ليوبولد، دوق النمسا. سلام. فيما اتهم عدة ملوك وأمراء من وراء البحار سيدنا ريتشارد، ملك إنكلترا، باغتيال المركيز، فإني أقسم بالله العظيم، وبموجب الشريعة التي نتبعها، أنْ لا علاقة له البتة بموت ذلك المحترم». وواصل قائد فرقة الحشاشين كلامه في وصف عملية السرقة التي تعرّضت لها سفينته على يد كونراد وإصدار أمر الاغتيال ردّاً على فعله هذا. وأورد بعد ذلك كلاماً تظاهر فيه بالتقوى كما لو أنه قصد بأن يؤكد وجود الشرف حتى بين القتلة. وختم رسالته أخيراً بما يلي: «كن واثقاً بأننا لا نقتل أحداً بهذه الطريقة سعياً وراء مكافأة أَو لكسب مالي، فلا نندفع إلىٰ فعلٍ كهذا رداً على فعلةٍ، على ضربةٍ وُجّهت إلينا من قبل».

يا للفرج!

وتطوّع سِنان بمبادرة إضافية، فكتب رسالة أخرى إلىٰ كل الأمراء والشعوب المسيحيين قال لهم فيها:

«لقد بلغنا أيضاً أنه قيل عن الملك ريتشارد نفسه بأنه استخدمنا وكأننا أكثر فساداً من غيرنا، كي ننصب كميناً لملك فرنسا. هذا خطأ. يشهد الله أن أحداً لم يطلب منّا شيئاً من هذا القبيل. إنّ صدقنا واستقامتنا لتمنعاننا أن نقترف هذا الجرم ضدّ امرىءٍ لا يستحقه».

وبما أنّ المسألة كانت مسألةً ماليةً لا علاقةَ لها بالذنب أَو بالبراءة، فإنّ هنري السادس لم يتأثر بها كثيراً.

أما الإيرل جون من جهته، فقد كان يحرز انتصارات متفاوتة في محاولاته لانتزاع العرش من أخيه. عندما عاد الأسقف هيوبرت إلىٰ إنكلترا بعد زيارة قام بها للملك في سجنه في ألمانيا، ضعفت الشائعة التي روّجها جون عن موت شقيقه. وعلى الرغم من إخفاق الجهود التي بذلها كي يستخدم ملك إسكتلندا لنصرة مطالبته بالعرش، فقد أحرز نجاحاً في هذا المجال لدى الويلزيين الحاقدين على الإنكليز فزوّدوه بالجنود وشنّوا بحماس حرباً على قلاع إنكليزية

مختلفة كان جون يطمع فيها. وطوال الشهور من 1192 إلىٰ 1193م، تغيّرت قيادة قلعتي وندسور وولينغفورد الهامتين الواقعتين في جنوب إنكلترا عدة مرات، إلاّ أنّ جون خسرهما في النهاية في مطلع سنة 1194م. بالإضافة إلىٰ أراضيه في كورنوال وديفون في الغرب، اقتصرت حصونه على قلعتين في نوتينغهامشير. وقد ارتدى هذا الحدث، في أُفقٍ لاحق، أهميةً كبرى في حبكة أسطورة ريتشارد وروبين هود.

تكاتف منافسو ريتشارد وتعاونوا ضدّه. تعاهدوا فيما بينهم لحاجتهم الماسّة للتعاون مع ارتيابهم في مصداقية بعضهم بعضاً، كي يواجهوا إمكانية إطلاق سراح ريتشارد الوشيكة. ومرة أخرى، كان فيليب يسعى من ضمن هذه المعاهدة أن يزوّج أخته أليس لجون. ولا يُنتظر من مِلاطٍ كهذا بناء إمبراطوريات عظيمة. ومع ذلك، شعر الإثنان بخوف وقلق شديدين من عواقب إطلاق سراح ريتشارد قبل حدوثه بعدة أشهر. وفي منتصف سنة 1193م، كتب فيليب إلىٰ جون ينبهّه فيها إلىٰ ضرورة قيامهما بعمل مفاجيء على وجه السرعة فقد أوشكت شروط تحرير ريتشارد أن تلبّى.

وكتب فيليب: «حذار. فقد أطلق سراح العفريت».

في أيام عيد الميلاد سنة 1193م، وبعد تحديد موعد إطلاق سراح ريتشارد في شهر شباط/ فبراير، حاول المتآمران أن يكيدا كيداً أخيراً بغيةَ إبقاء العفريت في أصفاده. وهكذا اقترحوا أن يماثلوا شروط الفدية بما يضاهيها من أموال، فيدفع فيليب مئة ألف جنيه ويدفع جون الخمسين ألف الإضافية شريطة أن يسلّم هنري الملك إليهما أَو يبقيه في سجنه لسنة واحدة أخرى على الأقل. لقد كان المتآمران الملكيان يحتاجان قبل كل شيء، إلىٰ تسعة أشهر إضافية يبقى فيها ريتشارد في الأسر إلىٰ أن يدعما دفاعهما ضدّ الإعصار الذي كان قادماً دون شك.

نَوّه هنري السادس، مدفوعاً بطمعٍ شديد، بالطروحات التي عرضها عليه

كل من فيليب وجون في الثاني من شباط/ فبراير سنة 1194م، بهدف ضربه ضربةً أخرى في الصميم.

لقد جُمعت الفدية وسلِّمت إلىٰ خزينة الإمبراطور في لندن، وفاءً بالعقد المبرم بينهما. أصرّ ريتشارد على ضرورة الوفاء بشروط العقد. فكّر هنري ليوم كامل ملياً في هذه المعضلة المغرية كما فكّر في غزو صقلية الذي سيطلقه قريباً ويموّله بمال الفدية.

وفي الرابع من شباط/ فبراير، أطلق سراح ريتشارد في ميتز Metz بحضور والدته إليانور، ومستشاره ويليام أوف أَلي، ورئيس أساقفة كنتربري هيوبرت والتر. وفي هذا اليوم بالذات، أرسل الملك مبعوثاً يدعى سولت أوف بريل إلىٰ فلسطين حاملاً رسالة موجّهة إلىٰ هنري أوف شامباين يبلغ فيها ابن شقيقه، ملك أورشليم الصليبي، بخبر إطلاق سراحه ويعلن له بنبرة يشوبها الحبور بأنه ينوي العودة إلىٰ الأرض المقدَّسة لدحر الوثنيين ما أن ينتقم لنفسه من أعدائه ويعيد بسط سلطته على مملكته. وبعد أيام قليلةٍ أُقيم قدّاسٌ احتفاليٌّ للملك في الكاتدرائية الكبيرة في كولونيا، وكانت الموعظة من سفر أعمال الرسل (12 : 11): «الآن علمتُ يقيناً أنّ الربّ قد أرسل ملاكه وأنقذني من يد هيرودس ومن كل ما تربصه بي شعب اليهود».

وسرعان ما انتشر خبر إطلاق سراح الملك في مملكة البلانتاجيين فابتهج الشعب والشعراء ابتهاجاً كبيراً. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودة الملك كي يسترد زمام الحكم وينتقم لنفسه من أعدائه. شعر بيرتران دو بورن، أشهر شعراء التروبادور، بنشوة عارمة إذ إنّ حدثاً كهذا يشكّل مادة لملحمة شعرية. إن الأسد في طريقه لدياره. حذار من هذا الحيوان النبيل، فهو ليس عنيفاً مع المخلوقات المقهورة بل «فخور يحارب الكِبَر». لا بد أن يقبض على من نكث قسمه كما يقبض على الذئاب ويشدّهم في أنشوطة واحدة.

وكتب المغنّي: «ها قد حان الفصل الفاتن حين ترسو مراكبنا ويصل مليكنا الشهم القدير. لم يكن الملك ريتشارد بهذه العظمة من قبل!».

وأخيراً، في الثاني عشر من آذار/ مارس، خطا ريتشارد خطوته الأولى على الأراضي الإنكليزية في ساندويتش. وتوجه في البداية إلىٰ كنتربري لتقديم احترامه وتقديره إلىٰ مزار توماس بيكيت ثم تابع طريقه إلىٰ لندن التي كانت قد أعدت له ترحيباً جديراً بالملوك.

تحضيراً لوصول ريتشارد إلىٰ دياره، نظّمت كتائبه حملة لصدّ عصابة جون الخائنة الموجودة تحت سيطرة إنكلترا. وقبيل وصول ريتشارد بأيام، وقع مبعوث الكونت في أحد الكمائن فيما كان يحمل تعليمات وجّهها جون إلىٰ أقوى حصونه كي تعدّ العدة لحرب قد تنشب بين الشقيقين. أثارت هذه التعليمات السفيهة الرعب والذعر في نفوس أساقفة البلاد الذين حرموا جون عندها حرماً كنسياً بسبب «محاولة بث الفوضى في المملكة».

ومن ثم، ارتدى الأساقفة الطيبون دروعهم وانتقلوا في كل أنحاء إنكلترا لتطويق معاقل جون الباقية. قاد رئيس أساقفة كنتربري الحملة في الجنوب. وسرعان ما سقطت قلاع جون في مارلبورو وجبل سان ميشال في قبضتهم بالإضافة إلىٰ لانكاستر في الشمال. أما أسقف دِرَم فقد ضرب عقر مقاومة جون في نوتينغهام شير حيث كانت قلعتا تيكيل ونوتنغهام لا زالتا تقومان بشراسة. استسلمت تيكيل أولاً ولكن استسلامهما لم يحصل سوى بعد اقتياد قادتها المرتابين إلىٰ ريتشارد للتأكد من ظهوره مجدداً ملكاً لإنكلترا.

ظلت قلعة نوتينغهام صامدة. سارع ريتشارد إلىٰ الموقع ووصل إلىٰ جوارها في يوم عيد البشارة ولكنه لم يحظ بترحاب جدير بالملاك جبرائيل واقتصر الأمر على حالةٍ من الفوضى والبلبلة.

رفضت حامية القلعة الاقتناع بعودة ريتشارد ورفضوا أي اقتراح يثبت لهم الحقيقة. عيل صبر الملك فأمر باستقدام معدّات الحصار الحجرية وأمر ببناء

مشنقة خارج الأسوار بغية إعدام بعض مناصري جون عليها. وانتهت العملية بأسرها بعد عدة أيام بتوسل الخونة راكعين يستجدون الملك للإبقاء على حياتهم. وفي اجتماع لمستشاري الملك حضرته إليانور أوف أكيتان، أصدر المجتمعون أمر محاكمة جون لتمرده في غضون أربعين يوماً أَو مصادرة كل ممتلكاته الملكية.

وهكذا مهدت هذه الظروف درب الأسطورة. ففي ظل حكم الكونت جون الظالم الشرير، شكّل بعض أهالي نوتنغهام الخائفين عصابةً من الخارجين على القانون الموالين لريتشارد جعلت من غابة شيروود مقراً لها. حمل زعيمهم تسمية روبين هود Robin Hood وقد كان فارساً من سلالة نبيلة انبرى لاغتصاب الأموال من الأغنياء ومنح المسروقات للفقراء ولذلك بات بطلاً أحبته عامة الشعب. خصمه الرهيب كان شريف نوتنغهام الماكر الذي ما فتىء يحاول إلقاء القبض على اللص الظريف بدهائه ومكائده من مثل منح سهم ذهبي للفائز في مباراة رماية. جُلّ ما كان يبغيه روبين هو الاستهزاء بالقوانين الجبروتية التي سنّها جون وحماية السُبُل التي تتخلل الغابات الكثيفة إلىٰ أن يعود الملك من أسره.

جمع روبين حوله مائة رام وفي عديدهم ويل سكارليت والقسّ تاك. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً خضراء ولَم يكن لبراعتهم في رمي الأقواس من مثيل. ويُروى أن روبين هود وزميله العملاق، جون الصغير، كانا قادرين على إطلاق السهام مسافة ميل أَو 1,760 يارد. ولا ننس بالطبع قصة الحب الرومانسية التي ربطت قلبي روبين وماريان الجميلة «آنسة خلوق جميلة تنحدر من سلالة نبيلة. تفوّقت على الملكة هيلين بجمالها ولباقتها وروعتها.

كل الرجال كانوا يسعون لإرضائها

هذه هي القصة التي كانت تتداولها المدينة.

ثم نظمت الرواية في أبيات شعرية.

وصلت إلىٰ مسامع الملك ريتشارد أخبار الأعمال التي قام بها روبين هود ورجاله:

فكم أعجب بهم وكم تاق

لرؤيته ورؤيتهم

ثم بصحبة اثني عشر من لورداته

إلىٰ نوتينغهام ذهبوا

وفيها أطلق تشجيعاته

واستعاد مملكته

ووفقاً لما يرويه المؤرخ روجيه أوف هوفدن، زار ريتشارد بالفعل غابة شيروود في اليوم الذي استسلمت فيه قلعة نوتينغهام، وشعر «بنشوة تغمره» لدى رؤيته الأحراج الوفيرة بالغزلان ومواليه المفعمين بالحيوية. فهل التقى الملك فعلاً باللص الجريء وآنسة ساكسونية أخّاذة، وهل نزع قلنسوة القس الذي كان يعتمرها ليكشف زيه الملكي، وهل قال لقطاع الطرق: «انهضوا يا رجال شيروود!»، وهل أعاد إلىٰ روبين قصره وممتلكاته، وهل بارك زواج روبين هود والآنسة ماريان... بالطبع فعل كل ذلك!.

في عيد الفصح، اجتمع نبلاء البلاد وأشرافها في ونشستر للاحتفال بالتتويج الثاني لريتشارد الأول ملك إنكلترا. وتقدم الملك إلىٰ المذبح تحت ظلة من الحرير بلباسه الملكي الفخم، معتمراً تاجه الذهبي وحاملاً في يده اليمنى الصولجان الملكي الذي ينتهي بصليب وفي يساره قضيب ذهبي على رأسه تمثال حمامة. وعند المذبح، وقفت إليانور ووصيفاتها بأحلى زينتها وأبهتها وفي عيونها نظرات الفخر.

بعد مرور أسبوع على هذا الاحتفال، غادر الملك إنكلترا متجهاً نحو النورماندي مستعداً لحملة طويلة بهدف استعادة سيادته هناك على النواحي،

وانتزاعها من فيليب أغسطس. في الثامن والعشرين من أيار/ مايو، وبعد استرجاع المزيد من الحصون، وصل الملك إلىٰ ليزيو Lisieux، وفيما كان جالساً بصحبة رئيس الشمامسة فيها، لاحظ انزعاج هذا الأخير وقلقه، فقال له: «ما الأمر؟» وسرعان ما أدرك الوضع فأضاف: «أعرف أنك التقيت بشقيقي جون. لا تنكر. قل له أن يأتي إليّ ولا خوف عليه. إنه شقيقي وما عليه أن يخاف. فلن استغلّ أعماله الجنونية ضدّه».

هرول رئيس الشمامسة والسعادة تغمره إلىٰ مخبأ جون القريب وقال له:

«اخرج من مخبئك فإنك لمحظوظ. الملك لطيف ورحوم ويبدي لك عطفاً أكثر مما كنت لتبديه له».

ارتمى جون على قدمي شقيقه مرعوباً فقال له ريتشارد بنبرة ترحيبية:

«انس ما حدث يا جون» ثم طلب من شقيقه الوقوف وتناول العشاء بصحبته: «لست سوى طفل أحاط به مستشارون ماكرون».

أربعون يوماً مرّت منذ أن أصدر مجلس نوتينغهام قرار محاكمة جون. وبما أنه لم يحضر أمام القضاة الإنكليز، فقد صُودرت ممتلكاته بأسرها. عاد من جديد معدماً خالي الوفاض في إنكلترا، خاضعاً لرحمة شقيقه الكريم.

كان على الكونت أوف مونتاني أن يرضى، في الوقت الراهن، بوجبة وفيرة من السلمون. فجلّ ما كان يمكنه أن يتوقع الحصول عليه من مائدة الملك لا يتعدّى سمكاً زهرياً وكسرات خبز.